***مسلم خليجي أم خليجي مسلم: حول مرجعية التعامل مع أزمة اللاجئين السوريين***

***مشاري حمد الرويح***

عندما نرى دموع الفرح في عيون السوريين والسوريات وأقدامهم تطأ ألمانيا أو السويد هل يجب أن نشعر بلوم النفس؟ التقصير؟ وربما غيرة أخلاقية؟ إذا كنا نرى أنفسنا كخليجيين فلا داعي لتلك المشاعر لأن هناك الكثير من الأسباب الأمنية والاقتصادية والديموغرافية التي تجعلنا غير قادرين على تقديم ما تقدمه وسوف تقدمه ألمانيا أو السويد للنازحين السوريين وبالتالي لا داعي لتلك الأحاسيس السلبية اتجاه "الذات". أما ان كنت ترى نفسك مسلماً فغالباً أنت لا تنام الليل. بالطبع هناك من يقول: الخليجيون مسلمون. نعم وفي الغالب مسلمون متدينون أيضاً. لكن لا أقصد هذا، ما أقصده هو "كيف نرى أنفسنا في هذا الموقف؟" أي ما هي المرجعية والهوية التي نستدعيها عندما ننظر الى دموع الفرحة السورية بعبور الحدود ودخول ألمانيا مثلاُ، وبالتالي ماهي مرجعتينا وهويتنا التي نرى بها الأمور في العلاقات الدولية بما في ذلك خطوات اللاجئين السوريين وهي تعبر حدود الدول الأوروبية الواحدة تلو الأخرى.

في العلاقات الدولية نحن نرى أنفسنا كخليجين وليس كمسلمين. أو حتى لا تفهم تلك الجملة بشكل خاطئ لنقل: نرى أنفسنا كخليجيين مسلمين وليس كمسلمين خليجين. كخليجين مسلمين يمكننا سرد التالي: هناك عدد من الأسباب التي تجعل قبول اللاجئين السوريين، أو المزيد من اللاجئين السوريين، أمر في غاية الصعوبة. أولا، هناك أسباب أمنية: فعلى الرغم من تعاطف الجميع مع اللاجئين السوريين الا أنه يبقى هناك ذلك الخوف أن بين اللاجئين من يتظاهر أنه معهم وهو في الحقيقة أحد أعضاء داعش، فقط حلق لحيته وذرف بعض الدموع ليتخفى بين اللاجئين. أمنياً أيضاً، هناك سبب آخر ذو علاقة على وجه الخصوص بدول الخليج ذات الأقليات الشيعية الكبيرة كالكويت مثلاً، فشيعة الخليج جميعهم يدعمون بشار ولا يملكون أي تعاطف نحو اللاجئين بل يرونهم كتهديد في حالة دخولهم لدولة مثل الكويت مما قد يزيد من حالة الاحتقان الطائفي الموجودة أصلاً.

اقتصادياً، يمكننا قول التالي: قد نكون دول ذات وفرة مالية ولكن في نفس الوقت ذات اقتصاديات صغيرة لا تملك العمق أو التنوع المطلوبين لاستيعاب هذا الحجم من العمالة السورية المتوقعة بالإضافة الى دعم عائلاتهم. في النهاية، نحن نبيع النفط ثم نوزعه على أنفسنا، للأغنياء من خلال نظام المناقصات الحكومية ولمتوسطي الدخل من خلال الرواتب الشهرية.

ديموغرافياً، لا يخفى على أحد أن الخليجيين أقليات في أغلب دولهم, في الكويت الكويتيون يمثلون ثلاثين بالمئة من مجموع السكان, في قطر والامارات النسبة قد تنخفض الى عشرين أو حتى خمسة عشر بالمئة, عند إضافة تلك الأرقام المخيفة الى المساحة الجغرافية الصغيرة لأكثر الدول الخليجية ثم نضيف أيضاً البعد الجيوسياسي لموقع دول الخليج بين ايران والعراق نجد أن دول الخليج تعاني من ما يمكن أن يسمى بخطر "وجودي". بمعنى أن ألمانيا قد تقبل نصف مليون لاجئ سنوياً لكنها ستظل ألمانيا بهويتها، لغتها، وقيمها، واستقلالها السياسي، ولكن لا يمكن قول نفس الشيء عن دول الخليج, باستثناء السعودية ربما.

على ذكر السعودية، وهنا تبدأ التبريرات الخليجية بالتحول من مستوى المصلحة الوطنية الى الإطار الأخلاقي، يكفي القول إن هناك نصف مليون سوري يعيش في السعودية، أكثر من نصفهم دخلوا الأراضي السعودية بعد الثورة، جميعهم يتمتعون بخدمات صحية وتعليمية مجانية بالإضافة الى مئة وعشرين ألف سوري في الكويت الكثير منهم أيضاً دخلوا الكويت في الأربعة سنوات الأخيرة وكذلك ارتفع عدد السوريون في قطر الى مئتي ألف منذ بدأ الثورة السورية. عدم ظهور تلك الأرقام في إحصاءات أو تقارير المفوضية العليا للاجئين (UNHCR) لا يعني أن استجابة دول مجلس التعاون للاجئين السوريين تساوي صفر كما يظهر في تلك التقارير. كل ما في الأمر أن لدول الخليج آليات مختلفة لقبول السوريين لا تتطابق مع آليات المفوضية العليا بسبب عدم توقيع دول الخليج على اتفاقية 1951 التي تعرف "اللاجئ" وتحدد معايير طلب اللجوء.

تلك التبريرات الخليجية مهمة ويجب أن تأخذ بالاعتبار بل حتى أني أجد أنه من الصعب الرد عليها خصوصاً ان كنت تعيش في الخليج وتشعر وترى حقيقة تلك المخاوف على أرض الواقع. الواقع! الواقع الخليجي، أسلوب الحياة الخليجي، هو المسؤول عن تلك الأرقام المخيفة وحصر الرؤية الخليجية في إطار تلك المخاوف. يتميز أسلوب الحياة الخليجي بجعل التحسينات أو الكماليات ضروريات، لا أقصد هنا ارتفاع حد الكفاية في دول الخليج طبقاُ لارتفاع الدخل وهو أمر مقبول، بل أعني أن الشاب الخليجي أو الأسرة الخليجية والتي يعتقد أنها تمتلك وفرة مالية قد تعمل وتعمل وتوفر وتقترض لشراء أجهزة قد لا يستخدمونها أبداً, ليسافروا الى أوروبا, أو لحجز غرفة في مستشفى خاص قد تكلف 3000 دولار في اليوم لاستقبال ليس فقط المولود الجديد بل و"استقبال" المهنئين أيضاً, حفلة الاستقبال الصغيرة تلك قد تكلف آلاف الدولارات أيضاً. قد يرى الانسان العادي أن تلك كماليات إذا توفرت فذلك شيء جيد إذا لم تتوفر: لا مشكلة. هذا ليس ما يشعر به المواطن الخليجي الذي قد يشعر بالنقص والحزن وقد يدخل في حالة من الاكتئاب الشديد بسبب عدم قدرته على توفير تلك "الضروريات" لنفسه ولأسرته كما قد يؤدي ذلك الى حالات من التوتر الأسري التي تنتهي بالطلاق في الكثير من الأحيان. أيضاً يؤثر أسلوب الحياة الخليجي وتعريف المصلحة الشخصية وحتى الوطنية على الوضع الديموغرافي في الخليج، وليس العكس. في الكويت مثلاً هناك ستمائة ألف هندي، مئتين ألف فلبيني وفلبينية. تلك أعداد كبيرة لا تزاحم اللاجئين السوريين المحتملين فقط ولكن الخليجيين أنفسهم في بلادهم. أيضاً الواقع الخليجي، أسلوب الحياة الخليجي مسؤولين عن تلك الأرقام. تخيل أن هناك تقريباً في كل بقالة في الخليج, عامل, وظيفته الأساسية أن يحضر ما يريده مرتادي البقالة الى سياراتهم, لأن الشاب الخليجي لا يريد أن يوقف سيارته وينزل الى البقالة بنفسه ويأخذ ما يريد. هناك مئتي ألف مقيم من الجالية الفلبينية, أكثرهم من النساء لأنهم هم من يربون أبناءنا: الجيل القادم من الخليجيين. في ما يخص تلك النقطة أعتقد أن الفلبين تملك من القوة الناعمة أمام دول الخليج أكثر من ما تملك الولايات المتحدة. اذا قررت الفلبين سحب مربياتها من دول الخليج قد تسبب اضطراب اجتماعي وشلل أسري كبير في الخليج.

تلك هي الحاجات والضروريات التي يتفق عليها المجتمع الخليجي عند تحديد "المصلحة الوطنية". بالطبع يمر تجميع تلك الحاجات الفردية اليومية بالكثير من التنقيح والتحسين، بمساعدة ومباركة، النخب السياسية حتى تصاغ كمحتوى ل "المصلحة الوطنية" والتي بالتالي تحدد السلوك السياسي نحو قضية ما. هذا ان كنت ترى نفسك خليجي مسلم، أما ان كنت ترى نفسك مسلم خليجي فواقعك وأسلوب حياتك المختلف يجعلك ترى معاناة اللاجئين السوريين بشكل مختلف. هنا, البعدين الاقتصادي والديموغرافي تقريباً يختفيان ويظهر التالي: أولاً: مقارنة السلوك الفردي والجماعي الخليجي بالمعيار الإسلامي الشرعي والذي يمكن تلخيصه في الآية التالية: ( واللذين تبوؤوا الدار و الايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولائك هم المفلحون) (الحشر8 ) تضع هذه الآية الكريمة عدد من القواعد للتعامل مع اللاجئين المسلمين, يلخصها الدكتور أحمد أبوالوفا في دراسته حول حق اللجوء في الشريعة الإسلامية كالتالي: أولاً: اظهار السرور عند استقبال اللاجئين وحسن معاملتهم. ثانياً: الاحسان إليهم والايثار نحوهم، بمعنى تقديم الغير على النفس في الحظوظ الدنيوية. ثالثاً: عدم رفض اللاجئين أو المهاجرين أو ردهم ولو كان أصحاب الإقليم الذي تم اللجوء اليه، الخليج في هذه الحالة، في فقر وحاجة. هذا فيما يخص المسلمين، أما لغير المسلمين فقد أقرت الشريعة الإسلامية إعطاء الأمن لملهوف فار من اضطهاد وظلم أو وضع سيء يمكن أن يتعرض له وذلك من خلال نظام الاستجارة، أو طلب الجوار حيث يتضمن هذا النظام عدد من المبادئ الأساسية منها: أن من يطلب منه الحماية والرعاية عليه واجب منحهما، وأن مانح الحماية لا يجوز له رد المستجير به. بالطبع يعب على الخليجيين أو غيرهم الوصول بسلوكهم الى هذا المعيار الأخلاقي المرتفع لكن ذلك لا يمنع أن يكون "المعيار" والحكم على السلوك وليس اعتبارات المصلحة الوطنية المادية أو حتى اتفاقيات المجتمع الدولي حول اللاجئين. ثانياُ: استمرار الاعتبارات الأمنية ,اخذها بجدية, والتي تعتبر التبرير الخليجي الوحيد الأكثر قبولاً بغض النظر عن مرجعية التعامل مع موضوع اللاجئين. ثالثاً: كمسلم خليجي بالطبع أنت تشعر بالكثير من الغيرة الأخلاقية، ولو جزئياً، ما تراه

هو مواجهة أخلاقية بين العالم الإسلامي وأوروبا، أو حلقة من حلقات تلك المواجهة والتي بدأت في العصر الحديث منذ أكثر من قرنين، أفكارنا في مواجهة أفكارهم، قيمنا في مواجهة قيمهم، سلوكهم في مواجهة سلوكنا. هم دائماً يفوزون! ولكن هناك شيء أكثر قسوة في هذه الهزيمة، هو أن هذه المرة نحن لم نحاول أن ننتصر, لم نحضر للملعب, أو حتى نكون أكثر دقة, حضرنا للملعب لكن لم نلعب, لأن كثيراً من النخب السياسية والثقافية والاقتصادية الخليجية كانوا ومازالوا في نفس القارة يقضون أجازتهم الصيفية!